السرد والتاريخ

مواجهات أولية

الدكتور /عبد الله عبد اللاوي

قسم الفلسفة جامعة وهران2

الخيال كان دائما إشكالية هامة عند بول ريكور، في أغلب مؤلفاته لم يشر إلى الخيال بقدر ما كان يشير إلى ((مشتقاته)) وتعبيراته المختلفة والمتعددة التي نجدها في الرمز: كالإستعارة والاسطورة، الحلم...وهذا كان ناتجا بالنسبة لبول ريكور من الإقتناع الكانطي بأن:" الخيال، فن مدسوس في أعماق الطبيعة الإنسانية... وأنه ملكة عمياء، لكنها أساسية للنفس الإنسانية.

لقد رأينا، كيف الزمن الإنساني يصبح إنسانيا عن طريق التداخل الموجود بين التاريخ و الخيال و بالتحديد انطلاقا عن إعادة تصوير Réfiguration الزمن في السرد التاريخي و الخيالي.

كما يجب الأخذ في الحسبان، علاقات كل من التاريخ و الخيال مع الزمن و الواقع و الحقيقة تبدو مختلفة من الناحية الإبيستمولوجية بخصائص الخطابين، وما يمكن ملاحظته كذلك و من بعيد يبدو خطاب الخيال (القص) غنيا لسبب بسيط وهو أنه أكثر حرية رغم:" أن التاريخ و الخيال يتشبثان بالمصاعب نفسها، وهي مصاعب ربما لا تحدها الظاهرتية، ولكنها تفهمها وتنقلها إلى مستوى اللغة. ثم خلقت نظرية القراءة فضاءا مشتركا للتبادل بين التاريخ... وكأن القراءة معنية فقط باستقبال النصوص الأدبية، لكننا قراء نصوص تاريخية بقدر ما نحن قراء روايات. وتحتل جميع أشكال الكتابة بما في ذلك كتابة التاريخ مكانها داخل نظرية موسعة عن القراءة...وفي إطار النظرية المسعة عن القراءة يحدث الإنقلاب من التنابذ إلى التقارب في العلاقة بين السرد التاريخي و السرد الخيالي."[1] ، لذلك يستعين بول ريكور في تصوره لنظرية القراءة هذه من "جيرار جنيت" G.Genette. وكايت همبرغر Kate Humbergur " فلاديمير بروب" Vladimir propp و.أ . ج. غريماس A. G. Greimas، في نبائه لتصور نمط هذه "القراءة" لبحث التقاطع و التداخل و الموجود في الرد عموما، و بين السرد التاريخيو السرد القصصي أو الخيالي، محتفظا بمفهوم الحبكة ، نظرا لغناه و تلازمه مع مفهوم الزمن السردي.

لا ضير أن نعرض هنا ببعض من الإيجاز إلى مصطلح السرد، الذي كنا تغافلناه في المباحث السابقة و الوقوف على بعض تعريفاته و مكوناته و تصوراته عند بعض أولائك الذين ذكرناهم واستعان بهم " بول ريكور" لحل إشكالية التداخل الموجودة بين خطاب التاريخ وخطاب الخيال.

---

(1) بول ريكور / الزمان و السرد، ج 3 ص 272

فالرد يجسد صيغة الخطاب في الرواية ويرتبط بشكل وثيق بطرائق الحكي و ما يتبع هاتين العملتين من عوامل و تحولات لغوية لها علاقة بتوجيه السرد لخطاب الرواية، كما يتوزع مفهوم السرد تنظيرات مختلفة : أهمها النقد اللساني و الأسلوبي و السيميائي: " لذلك أصبح السرد بمثابة الساحة التي تتصارع فوقها فروع ونظريات واختصاصات مختلفة، وما يمكن ملاحظته في البدء أن مفهوم السرد قد اكتسى فعالية إجرائية في الأبحاث التي استفادت من كتاب النقاد البنيويون "[□].

كما يعود مصطلح السردية Narratologie على تودوروف. T. Todorove، الذي صاغه عام 1969، للدلالة على علم السرد. La science du recit ، وينبغي أن يفهم علم السرد هنا بمعناه الواسع، وتبعا لذلك فلا ينبغي أن تقتصر دلالة السرد على جنس الرواية و القصة، وإنما تسع لتشمل بدلالتها، الحكايات الشعبية و الأساطير و السنما و التاريخ..."[□].

وفي منظور، جرار جينيت،G.Genette ، فإن الصيغة الوحيدة التي يعرفها الأدب، بما أنه تمثل، هي السرد، المعادل اللفظي لوقائع غير لفظية " [□]. كما يرى جان بيير فاي J.P. Faye ، تقابلا، غير متنافر بين البنى و المتن، إذ تتصل خصائص الموضوع السردي الذي يخضع إلى التغيير... لكن العلاقة الأساسية التي تميزها، و تفرقهما عن كل موضوع ليس سوى هذا الموضوع الذي يغير موضوعه، و الخاصية الأساسية للموضوع السردي تكمن في الفعل الإجتماعي الذي يغير بدوره الفعل السردي: إنه فعل اللغة التي تعمل على تغيير فعل موضوع القصة أو الحكاية"[□]. نلاحظ مما تقدم، أن جل هذه التعريفات و التحديدات الموضوعاتية للسرد، استفاد منها بول ريكور كثيرا، لتطوير تصوره الخاص ثناء بحثه في تحولات الحبكة، لأن القصة بالمنظور السردي هي تركيب بين متنافرات، تحفظها ثلاث سمات هي: الوساطة التي تؤديها الحبكة بين الأحداث المتعددة و القصة الموحدة، و أولية التوافق على التضارب. وأخيرا التنافس بين التعاقب و الصياغة التصويرية"[□].

في بحث التقاطع الموجود بين خطاب التاريخ، يشير ريكور، أنه يعني بالتقاطع " البنية العميقة، سواء أكانت أنطولوجية أو إبيستمولوجية، التي يضفي بفضلها كل من التريخ و القصص الصفة العينية على قصرياتهم الخاصة فقط عن طريق الإستعارة من قصدية أخرى، في النظرية السردية.

يتطابق إضفاء الصفة العينية مع ظاهرة "الرؤية- كأن" « voir–comme »[7] يعني، تتبع ذلك في المرجعيات الإستعارية التي ناقشها، ريكور في كتابه "الإستعارة الحية".

---

(2)- فاطمة أزرويل/ مفاهيم نقد الرواية بالمغرب، نشر الفنك، المغرب، 1989 ص 178

(3)- بول بيرون / السردية حدود الفم تر/ عبد الله إبراهيم. مجلة الثقافة الأجنبية ص 26

(4)- رولانذ بارت و آخرون/ طرائق التحليل السردي الأدبي. ترجمة محمد العمري. دار الثقافة. المغرب ص 42

(5)- J.P.Faye/ la raison narrative. Langage de la théorie critique de l'économie narrative.Ed. Ballaud. Paris 1990. p 429.

(6) – بول ريكور الوجود و الزمان و السرد/ ترجمة سعيد الغانمي/ المركز الثقافي العربي بروت 1999 ص 42

(7)- بول ريكور/ المرجع السابق. ج 3 ص 272

لا يمكن في نظر ريكور إضفاء الصفة العينية هذه، إلا إذا استعمل التاريخ الخيال واستعمل الخيال التاريخ، لنفس الهدف: وهو إعادة تصوير الزمان.

نستنتج، إذن، أن هناك استعمالان سيبحثهما بول ريكور هما: تخييل التاريخ، و أرخئة التخييل.

إذن، ما هو دور المخيال في استهداف الماضي كما كان فعلا ؟ إن التاريخ، كما هو معروف يعيد تسجيل زمان السرد في إطار زمان العالم، و بهذا المعنى يفرض التاريخ كرونولوجية على مقياس واحد على سلم الزمان المشترك كقولنا " تاريخ" الأرض، أو تاريخ " الأنواع الحية"... وإعادة تسجيل زمان السرد في إطار زمان العالم بما ينسجم مع سلم زمني واحد تبقى من خصوصية النمط المرجعي للكتابة التاريخية، وانطلاقا من هذا، يفتح المجال لأكثر الأطروحات واقعية، بأن المخيال يندرج لأول مرة //// " ما كان يوجد" « l'avoir–été »، ومن أجل ردم الفجوة الموجودة بين زمان العالم و الزمان المعيش. يشير " بول ريكور" إلى مجموعة من الروابط الخاصة - connecteur- الزمن من شأنها أن تجعل الزمان التاريخي قابلا للفهم، " لأن أهم سمة منظورة، وإن لم تكن أهمها حسما بالضرورة، في المقابلة بين الزمان القصصي Fictif و الزمان التاريخي، هو اتفاق الراوي، الذي/ بينه و بين المؤلف- فيما يتعلق بالإلتزام المفروض على المؤرخ، ألا وهو تحديدا الحاجة إلى التوافق مع بعض الروابط connecteur الخاصة لإعادة تسجيل الزمان المعيش في الزمان الكوني" (□)، ذلك يعني أن الزمان التاريخي، هو زمان ثالث يضمن الوساطة بين الزمن المعيش و زمن العالم.

وهذه الوساطة تتم عبر ثلاثة روابط نوجزها فيما يلي:

1 -زمان التقويم le temps calendaire: هو أول جسر تنشئه الممارسة التاريخية بين الزمان المعيش و الزمان الكوني، لأنه شرط ضروري لحياة المجتمعات وهو زمان نستطيع قياسه عن طريق التوقيت وله كذلك ثلاث سمات هي: أنه حدث مؤسس يتخذ بدءا لحقبة جديدة، مثل مولد المسيح- أو الهجرة النبوية، وكذلك عند الإحالة إلى المحور الذي يحدده الحدث التأسيسي من الممكن تحريك الزمان في اتجاهين من الماضي نحو الحاضر، ومن الحاضر نحو الماضي وأخيرا نحدد شبكة وحدات القياس التي تساعد في تعيين الفترات الثابتة لوقوع الظواهر الكونية ويساعد الفلك في ذلك.

2 -تعاقب الأجيال la suite des générations: عد هذه الوساطة الفلكية ، التاريخ يضمن كذلك وساطة بيولوجية بين الزمان الكوني و الزمان المعيش ومن داخل الزمان المعيش بين زمان فردي وزمان جماعي، وهي الفكرة التي يستعيدها بول ريكور من " دلتاي" .W.Dilthey: " في الأصل بنية توسيطية بين الخارجية الفيزيائية و الداخلية النفسية للزمان، تجعل من التاريخ كلا تشد الإستمرارية أواصره" (□).

3 -مقولة الاثر.la trace: ثم إن الزمان التاريخي يرتبط بالأثر، لأن المعرفة التاريخية هي معرفة بالآثار :" لأنها توجه البحث و التقصي و الإستفسار، وهذا هو التاريخ بعينه. و القول إنه المعرفة من خلال الآثار التي يعني اللجوء في التحليل الأخير، على دلالة الماضي المنتقض الذي

(8) – بول ريكور/ المرجع نفسه- ص 188

(9)- بول ريكور/ نفسه – ص 164

ما زال مع ذلك محتفظا بوسماته ومعالمه"[10].

بجانب هذا العائق الزمني، يعرف لتاريخ عائقا آخرا، هو " واقعية الماضي) : " لأن طموح المؤرخين في أبنيتهم في أن تكون ترميمات وإعادة بناء تتناسب، قليلا أو كثيرا، مع ما كان واقعيا ذات يوم. ويحدث كل شيء وكأن المؤرخين كانوا يعرفون أنهم ملتزمون بدين لأنا الأزمنة القديمة و الموتى. وإن من مهمة التأمل الفلسفي أن يسلط الضوء على هذه الواقعية الضمنية التي لا تفلح في طمس أكثر الأشكال تسليحا من بنائية غالبية المؤرخين التي يعكسونها في إبيستمولوجيتهم وسوف نعطي اسم (الحلول- محل) أو " النيابة- عن) « Représentance »

للعلاقات بين أبنية التاريخ و مايقابلها، أعني الماضي الذي تقضى ولكنه ما زال يحتفظ بآثاره."[11].

عندما يؤكد بول ريكور، عن هذا التوتر الموجود في التاريخ بين الخيال و " الواقع" أي:" أن ما حصل لو كان" « ce qui, un jour, fut » ، لا يقتنع بالحلول الوضعية كما تعددت معالمها مع تيار التاريخ الجديد ومدرسة الحوليات- كما رأينا- مع الوجوه الكبرى للمؤرخين أمثال: " مارك بلوخ" M. Bloch ، و" بروديل" F.Braudel، ثم مع تواريخ جورج دبي" G.Duby، و" جاك لوقوف". J. Legoff...وغيرهم و التي مؤلفاتهم وأطروحاتهم نقاشات واسعة واسعة حول التاريخ و كتابته، ويمكن تلخيص تصوره عن ه\ه المدرسة و أطروحاتها في خمسة مستويات هي:

1 - في خطابها النظري و المنهجي، أنتجت هذه المدرسة التفكير في التاريخ انطلاقا من محاكمة فلسفات التاريخ.

2 - لم تكن الانتقادات الموجهة إلى فلسفة التاريخ تهمه، بل تدخله في النقاش الخاص بوضع " الواقع " التاريخي « le réel historique » لأنه لم يكن مقتنعا بالحلول الوضعية، لذلك سنجده يقترح حلا لهذا " الواقع" من خلا مفهوم " بالنيابة عن" أو " الحلول محل" « Représentance » لتأكيد إزدواجية هذه الواقعة بالنسبة لوضع الحقيقة من جهة وضع الخيال من جهة أخرى.

3 - ثم كان له هم ثالث، تمثل في حقل الكتابة التاريخية، باستيطانها للسرد التاريخي، في الحضور المخصص للخيال بالنسبة للسرد في الكتابة التاريخية " لأنه في هذا السجل، سنجد بول ريكور يشير كل مرة إلى أعمال " ميشيل دي سارتو" « M de certeau » ، الذي كان يرفض دائما إدماج الواقعة التاريخية مع أخرية « Altérité »، ومنه استيعاد مفهوم " الدين" « Dette »[12].

4 - و المستوى الرابع من النقاشات التي أثارها ريكور، كان عن أشكال الزمنية كما صاغها الجيل الأول من مدرسة الحوليات، من خلال الفصل الذي

([10])- بول ريكور/ المرجع نفسه- ص 176

([11])- م. نفسه ، ص 147

([12])- يستعمل بول ريكور " الدين) كما صاغها ميشيل دي سارتو، في دراسة العلاقة مع الماضي التاريخي ، لكنه يشير في المقابل انه لا يستعملها بنفس معناها مثل ما هي موجودة عند دي سارتو، أنظر هامش الصفحة في P. Ricowr/ Temps et récit. T3. Ed. seuil P 223

خصصه لأطروحة بروديل" في المتوسط وقيلب الثاني"[□□].

5 -في المناقشات عن العلاقات الموجودة بين الإسطوريوغرافيا، وتمثلات التاريخ عن الإعتباري « statut »، اللاهوتي و السياسي في المجتمعات ما بعد الدينية.

بالموازة مع هذه المواجهات، مع الكتابة التاريخية هي التي تستسعفه في صيغة تفكيره عن الشروط الممكنة للفعل التاريخي، وهي تخصيص مكانة لائقة للسرد القصصي أو الخيالي.

في نظر بول ريكور، يتحقق الربط بين التاريخ و الخيال و بين راهنية انتاج نص، يعتبر مثل أثر ينبغي إخراجه، ذلك أن:" كتابة التاريخ ليست شيئا يضاف من الخارج إلى المعرفة التاريخية، بل هي شيء من داخلها، فلا شيء يمنعنا من الإقرار أيضا أن التاريخ يحاكي في كتباته الخاصة أنماط الحبكة التي يتداولها التراث الأدبي"[□□].

عطفا على هذا، يستعمل المؤرخين الخيال، لأن إعادة بناء الماضي لا تكون أولا تتهيأ دون اللجوء إلى الخيال، لأن آثار الماضي هي دائما صعبة المنال. وكذلك في امتهانهم للكتابة التاريخية، يستعمل المؤرخون الخيال. ليس من أجل الكذب ولكن من أجل الإعجاب أيضا: " لأنهم يتحكمون بطرق أكثر ذكاءا في بناء الرواية حين يجتهدون في إعادة التفعيل، أي في إعادة التفكير بتقييم بعض الوسائل و الغايات. إذا فالمؤرخون لسيوا بممنوعين من " فك مغالق" وضعية معينة، أو من إعطاء سلسلة من الأفكار. أو من إضفاء "حيوية" « vivacité » خطاب داخلي عليها[...]هكذا تتخذ خطوة إضافية هنا، فيما وراء " الرؤية- كأن" وبمعزل عنها، لا تحظر الإقتران بالإستعارة، التي تماثل، و السخرية التي تخلق مسافة. فقد أدخلنا إلى عالم الوهم الذي يخلط، بالمعنى الدقيق للكلمة، " الرؤية- كأن" –voir « comme: " الإعتقاد أننا نرى" –croir « voir [...] وهنا يمكنني احديث عن " الوهم المراقب" « l'illusion controlée » . لوصف هذه الوحدة السعيدة [الموجودة بين الخيال و التاريخ] إلى تحدث فيها الحركة في اتجاه معاكس، أي من القصص إلى التاريخ. وليست من التاريخ إلى القصص."[□□]

يعمل المؤرخ، دائما تحت إكراهات " الحقيقة" و " الوقع"، لذلك يعمد المؤرخ إلى هذا " الوهم المراقب". إن ريكور من خلال فلسفته التأويلية. كان هاجسه إعطاء قيمة لدور الخيال و عمل مخيلة من خلال إطلاعه و تعليقاته على تأويلات "فرويد" على لوحة ليوناردو دافنشي و الأعمال الشعرية " لغارسيا لوركا" « F.G.Lorcq ».

نستنتج من هذا، أن تنويعات ريكور النقدية و النظرية حول السرد الخيالي و السرد التاريخي، وبحث علاقات التداخل و التقاطع بينهما، إلا أنه، سوف يبحث كذلك عن نصيب الخيال من التاريخ، أو كيف تؤرخن الخيال ؟

لعل السرد الخيالي، أيضا، يعرف معوقات السرد التاريخي، فريكور، سيؤسس لملاحظة جد هامة، لأن النص القصصي موجود بين عالمين، عالم الكاتب و عالم القارئ :" إن مشكلة الحرية

([13])- أنظر الفصل المخصص لمدرسة الحوليات تحت عنوان" أفول السرد " في كتاب الزمان و السرد – ج1 – مرجع سبق ذكره

([14])- بول ريكور/ الزمان و السرد. ج 3 ص 279

([15])- بول ريكور/ المرجع نفسه، ص 280- 281

الإبداعية، ليست بالمشكلة البسيطة، و لا يشكل تحرير السرد (القصصي) من قيود التاريخ و إكراهاته وهي القيود التي تختصر في في البرهان التوثيقي « la preuve documentaire » الكلمة الأخيرة حول حرية السرد الخيالي [...] لكن الخدمة التي تؤديها الرؤية للعالم التي يكافح المؤلف الضمني لتوصيلها للقارئ هي بالنسبة للقصص منبع إكراهات وقيود أكثر دقة ورهافة، تعبر عن لحظة الحرية الإسينوزية: وهي تحديدا الضرورة الداخلية. وحين يتحرر السرد من القيود الخارجية للبرهان التوثيقي، فإنه يتحدد داخليا بالشيء نفسه الذي يشترعه خارج ذاته و مادام الفنان متحور... فيجب أن يحرر نفسه من أجل..." (□□)

من جهة أخرى، فإن كتابة السرد القصصي أو الخيالي في الزمن الماضي تؤرخنه:" إن السرد القصصي يحاكي بطريقة ما السرد التاريخي، إذ يمكن القول إن رواية شيء ما تعني روايته كما لو كان ماضيا[...] الإشارة الأولى إلى أن " كأنما الماضي" هذا سيشكل جزءا من المعنى لكل سرد، ذات طبيعة نحوية صارمة، إذ تروى الحكايات و السرود في صيغة الزمن الماضي."(□□)

يبرهن ريكور على ذلك:" يكون التاريخ شبه – قصصي بمجرد أن يضع شبه- حضور الأحداث أمام عيون القارئ عن طريق إضافات سردية حية تنوب عن حدسيتها و حيويتها، الصفة المتملصة لماضوية الماضي.[...] ويكون السرد القصصي شبه- تاريخي بمقدار ما تكون الأحداث غير الواقعية المروية وقائع ماضية بالنسبة للصوت السردي الذي يخاطب القارئ، وبهذا تشبه الأحداث الماضية ويشبه القصص التاريخ"(/)

في استعادة ما قاله بول ركور عن نظرية القراءة، يبين أن الخيال يسكن الواقع. بالقياس أنه مرتبط بحياة القارئ ، ذلك أن القصص يحور، فقط عند ما يكون " الشبه- تاريخية" للقصص يتداخل تداخلا واضحا بالتفسير الذي اقترحته أيضا للصفة " شبه- القصصية" للماضي التاريخي. وإذا صح أن إحدى وظائف السرد ذات العلاقة بالتاريخ تتمثل في أن يطلق استرجاعيا، بعض الإمكانيات التي يتحقق فعليا في الماضي التاريخي." (□□)

نستنتج مما سبق، أن علاقات التداخل الموجودة بين الخيال و التاريخ، رغم اختلافهما – " لأن المؤرخين يبرهنون و الشعراء يبدعون، فالتداخل، كما يؤكد ذلك، بول ريكور، هو تداخل بين القصديات التخيلية للتاريخ و الخيال معا و تكون على مستوى القارئ / المؤلف:" و لا يحدث هذا التحقق و لا تنتج هذه القصديات في نظر ريكور، إذا لم يستعمل التاريخ الخيال و الخيال التاريخ، لهدف واحد هو إعادة تصوير الزمان. وإعادة التصوير المتبادل يرسم انتصار الشكل figure. لى صورة " نتخيل- مثل" « s'imaginer que »، أو بشكل أدبي " نتصور- مثل" « se figurer que »(□□)

وفي الختام : " ومن هذه التبادلات الحميمة بين إضفاء الصفة التاريخية على السرد القصصي وإضفاء الصفة على السرد التاريخي يتولد ما

(16)- بول ريكور/ م. نفسه- ص 265
(17)- بول ريكور/ م. نفسه- ص 285

(18)- بول ريكور/ المرجع نفسه، ج 3ص 289
(19)-Paul Ricowr/ l'herménentique à l'école de la phénoménologie. Ouvrage collectif. Paris- P286

نسميه بالزمان الإضافي، الذي هو ليس سوى الزمان المروي."([20])

إن الزمان المروي، المؤرخ، يتوسط كذلك الزمان الكوني و الزمان النفسي. و نستطيع بواسطته إعادة تصوير الزمن عبر روابط خاصة كما رأينا ذلك سابقا.

يضع بول ريكور، الخطاب التاريخي في توثلر خاص به بين الهوية السردية «identité narrative» وطموح الوصول إلى الحقيقة. يشير ديفيدر كار D.CARR إلى العلاقة الوثيقة الموجودة بين الزمن و السرد، و بين الوظيفة الاستمولوجية و الوظيفة الأنطولوجية للسرد، مجبا عن سؤال: " ما هو الوضع الاعتباري للسرد؟ هل هو مبدأ إستمولوجي أو بالاحرى و في الوقت نفسه مفهوم أنطولوجي؟ يمكن أن يطرح السؤال بشكل آخر، هل يشكل السرد فقط خاصية للمعرفة التاريخية، بالنسبة لريكور، إن الوظيفة الاستمولوجية للسرد تتأسس على خاصيته الأنطولوجية أو باعتباره نفسه مقولة أنطولوجية و بالنسبة للنظرية السردية، نطبق كذلك على خطاب التاريخ كما خطاب الخيال."([21])

نستنتج أن السرد في التاريخ، هو الفعل الذي تتكون بواسطته معرفتنا للماضي، و الرواية التي تنتج منه يكون لها وقعا على السيرورة التاريخية، انطلاقا من تلقيها و تساهم أيضا في تكوين الواقعة التاريخية نفسها، لان النص التاريخي يدخل في علاقة وثيقة في الزمان و السرد، ذلك:" أن إعادة التصوير تشبه علاقة سببية بين نص من جهة، و سلسلة الأحداث و الأفعال من جهة أخرى، و أن النص المتلقي، يجب أن يلج الواقع الاجتماعي و يدخل في التكوين المجتمعي لان فرنسا القرن الثامن عشر. أصبحت مجتمعا ليس فقط بالثورة، لكن بواسطة أنها كانت ثورة محكية من طرف مؤرخيها الكبار. و أن هذه التأويلات (المرويات، الحكايات) تضحى جزءا من الوعي التاريخي [...] ذلك أن التأويل التاريخي للماضي يستطيع تغيير طريقتنا في الوجود حاضرا و مسقبلا."([22])

رغم الجهد التنظيري الكبير، لبول ريكور، من خلال أعماله التي تناولت الممارسة التاريخية، بتأملات عميقة و أسئلة منهجية' ساعدت المؤرخين إلى أن يتفطنوا للممارسة التاريخية، التي لا تغي شيئا آخرا، غير مجانية الحق في استعادتها للماضي. إلا أن هناك من يدعون إلى الحيطة و الحذر من الوقوع في شراك التلفيق و التزوير falsification، باسم الخيال و الصياغات و الإجراءات الصورية، في نظرهم أن الرواية أو السرد يقف على هامش التاريخ وتقف في موقع مضاد له، وأن التاريخ هو خطاب موجود ومعين وإن كان على نحو سردي:" وأن المعرفة التاريخية تأسس لإجراءات خاصة، وهي بناء و معالجة المعطيات، إنتاج الفرضيات، نقض و تمحيص النتائج، إثبات التطابق بين خطاب المعرفة وموضوعه. حتى ولو كان مكتوبا في شكل أدبي، فالمؤرخ لا يصنع الأدب"([23]) وهذا ما يؤكده أحد كبار المؤرخين وهو " بيار فيدال ناكي" « P.V–Naquet » في قوله: " المؤرخ يكتب، وهذه الكتابة ليست محايدة أو شفافة ، وهي تتنمذج على صور أدبية و على أشكال

([20])- بول ريكور/ المرجع نفسه،- ج 3 ص 149

([21]) - David Carr/ épistémologie et ontologie du récit in / les methamorphose de la raicon hérmenentique. P 205

([22])- D.Carr/ Ibid. P206.

([23])- R. Chartier/ Au bord de la falaise op. eit.P103

بلاغية[...] أو حتى أن المؤرخ يفقد براءته أو يحول هو إلى موضوع (الذاتية)، أو يندم على ذلك، فإذا لم يلتصق الخطاب التاريخي. بواسطات نحن نريدها، بما نسميه بالواقع le réel، فإننا نبقى دائما في الخطاب. لكن هذا الخطاب يكف من أنه تاريخي."(□□)

- **الهوية السردية:**

لقد رأينا، كيف سلم، ريكور، بأن التاريخ و القصص يختلفان عن بعضهما باختلاف مراجعهما المباشرة. و هما الأحداث الواقعية و الخيالية، فإنه يؤكد أنهما ما داما ينتجان قصصا ذّات حبكة، فإن مرجعهما الأخير هو التجربة الإنسانية في الزمن. يفرق " بول ريكور" يسن الكتابة السردية و التاريخية في موضوعة الحبكة، فالتاريخ الزمني ليس سردا، أو حكاية لأنه لا يمتلك ذلك النوع البنية التي لا تمنحها إلا الحبكة، هنا فقط يظهر الإختلاف الحاسم بين تجربة الزمن بوصفه مجرد تسلسل، وتجربة الزمانية التي تكتسي فيها الأحداث مظهر العناصر القصص المعيشية ذات البداية المتميزة و الحبكة و النهاية.

إن الكتابة التاريخية و الأدبية عند ريكور يقعان معا تحت طائلة الزمنية، لهذا هناك تقاطع بينهما، ومهما كانت الفروق بين مضامينهما المباشرة. وهي الأحداث الواقعية و الأحداث المتخيلة، يظل مضمونهما الأخير واحدا: ألا وهو بنية الزمن الإضافي.

هنا، يستعيد بول ريكور، الأطروحات الفلسفية المركزية لهايدغر Heiedgger ومن التحليل الوجودي للزمان عند نقطة بدايته، أو نقول: " أن ريكور، في الزمان و السرد، واصل مواجهته مع أعمال هيدجر، و التفكير في التاريخية l'historialité، كانت ذا حسبان بالنسبة لهن كما يمكننا تبيان أنه خلف هذه الثلاثية (الزمان و السرد) لبول ريكور بأنها شكلت ردا على الوجود و الزمان" (□□)

يلاحظ بول ريكزر بأن: " الوجود و الزمان، اقتصر على أنثربولوجيا فلسفية تتجاهل قصده الحقيقي. وربما يكون هيدجر نفسه قد رأى لزوم سوء الفهم هذا، حيث ترك الوجود و الزمان غير مكتمل، وتخلى عن تحليله الآنية ((الدزاين)) ((الوجود- هنا)). ومن ناحية أخرى، إذا فقدنا النظر إلى موضوعة تحطيم الميتافيزيقيا التي تصاحب، منذ مطلع (الوجود و الزمن)، استرداد سؤال الوجود، فإننا نغامر بسوء فهم معنى النقد الذي كان يهدف إليه، على صعيد الظاهراية، عند أولية الحاضر، حين تخفق عند الرابطة بين هذا النقد ونقد الأولية التي أولتها الميتافيزيقيا للرؤيا و الحضور" (□□)

إن هيدجر، كان يرى أن الزمان هو أفق فهم الآنية، وباعتبارها المصدر النهائي لمسألة الكينونة الموجود في العالم، واعتبارها هي الفهم. واعتبار هذه الكينونة، تجربة معيشية قائمة على الهم الوجودي، حيث يتم تحديد الهم من خلال تعريف كينونة " الدزاين"، إنه سكن كينونة ما- في- قبل لـ أنا- في ذاته- وهي تفتح إمكانات مستقبلية للوجود. و الدزاين زمن لأنه يعطي كل كينونة، في كينونة قبل الذات، كما يعيش

(24).P-V-Nauet/ les assasins de la memoire- in R – chartier/ op. eit. P103

(25)- F.Dosse/ Paul RicowrK les sens d'une vie . Ed . la decouverte. Paris 2001. P 550

(26)- بول ريكور/ الزمان و السردن ج3 ص 89-90

تزامنيته موجها دائما نحو سلطة،- الكينونة على طريقة أصلية أو غير أصلية، أصلية لأن الدزاين يأخذ بذاته وجوده ويتكفل به، كسلطة – كينونة منتهية، أي تأخ فعل يخص مستقبلها الجوهري. إذن أخلاقها، وضروريتها بالنسبة لها كحتمية إمكانات الكينونة في وظيفة هذه/// المحدودة.

يرى هيدجر في هذه المسألة أن البنية التاريخية هي بنية الوجود الذي هو إطار الفعل، و بالتالي فإنه يحاول أن يوحد بين اللغة في العالم وهذا يظهر في إطار تpليل الوجود الإنساني باعتباره عملية تفسير وأن هذا الوجود يتماشى أو سيكن اللغة. و لما كان الإنسان هو الموجود الذي تنحصر كل ماهيته في وجود نفسه، اتخدت منه الأنطولوجيا نقطة ارتكاز لها، إلا أن الإنسان لا يهم الأنطولوجيا من حيث هو إنسان، بل من حيث هو ذلك الكائن الذي يتكشف من خلاله معنى الوجود.(□□)

" يتفق ريكور، مع هيدجر، حول هوية الآنية، باعتبارها شيئا جوهريا ثابتا، وهي ما يتحقق بالزمان، ودوامها يحفظه الزمان من التبدد و التبعثر، إن أنطولوجيا ريكور تختلف مع أنطولوجيا هيدجر وذلك بإدخاله عنصر السرد، لأن الذات نفسها تحتوي على شبكة متقاطعة مع الآخرين. وهي ليست جوهرا قائما ذاته، بل إشكالية مفهومها قائمة على البقاء في الزمان، إن قوام الذاتية، ليس الوجود للذات، بل الوجود للآخرين بينهم و معهم في حركة لا انقطاع لها من الأفعال الحاضرة و الماضية و المستقبلية التي ينقلها تراث سردي حاضر."(□□)

إلا أن هيدجر كما يشير إلى ذلك بول ريكور عندما قام: " بعولمية الفهم، بهذا الشكل فإنه أفرغه من طابعه النفسي « dépsychologise »"(□□)

هذا التحويل الأساسي، سيوجه هيدجر، نحو اللغة و عبر ثلاثيته: الوصفية- الفهم- التفسير. تنطلق من عمق أي نسق لساني وتسمح للفهم أن يكون ممكنا كقدرة على التوجيه. في نظر ريكور أن هيدجر اكتفى ببعد واحد من الزمانية عندما يصورها وجودا نحو الموت، لذلك نجده يعلق على تصور هيدجر:" أليست السردية بإفلاتها من هاجس الصراع بوجه الموت، تفتح تأملا ما بالزمن على أفق غير الموت، على مشكلة الإتصال ليس فقط الموجودات الحية، بل بين المعاصرين و السابقين و اللاحقين " (□□). وهكذا ينتقل ريكور بالأنطولوجيا التأويلية التي انشغلت بالوجود و الزمان- في الحالة الهيدجرية – إلى ثالوت ينكسر بالوجود و الزمان من خلال وساطة السرد.

لقد رأينا في المبحث الأول، أن تفكير بول ريكور، اتجه عن إلى البحث عن المفارقات التي تنشأ كل مرة و شكل حتمي عندما نحاول التفكير من خلال التجربة الداخلية للزمن في حالة أوغسطين، أما بالنسبة لأرسطو، فرأينا ريكور يعاين مفهوم الزمن خلال مفهوم الشعرية الأرسطي، بسليط الضوء

(27)- voir/ introduction à la phénoménologie/ Ph/ Humman. Estelle Kulich. A.Colin. 1997.

(28)- أنظر سعيد الغانمي/ الوجود و الزمان السردي، المركز الثقافي العربي- بيروت ط1/ 1999

(29)- بول ريكور/ من النص إلى الفعل – مرجع سبق ذكره ص 69

(30)- أنظر سعيد الغانمي / مرجع سبق ذكره ص 30

على مسألة المحاكاة « mimésis » باعتبارها تمثيلا للفعل action و بالتالي تكون فضاءا للقصة هو موضوع التمثيل و المحاكاة.

لقد كان هدف، بول ريكور، هو إعادة بناء الوساطات اللازمة لربط مسألة السرد مع الزمن. لذلك دافع، كما رأينا، على فرضية مركزية في بحثه و هي أن السرد وحده منوط به تسجيل الزمن الإنساني، بمعنى آخر: السرود و المرويات ترمز و الذاكرة تحفظ ما هو لأن يروى ويحكى، وإن الزمن الإنساني هو فترة من حياتنا إن على المستوى الفردي أو الجماعي، وهو في الوقت نفسه لا هذا ولا ذاك، إنه المدة الداخلية لكل شعور أو وعي. وعندما يميز ريكور بين الزمن الإنساني و الزمن الداخلي و الزمن الكوني يريد دعوتنا ويشد انتباهنا إلى فترة الفعل action و المعاناة الإنسانية، و لا يتم ذلك في نظره إلا عن طريق الرواية و السرد الذي يحفظ من النسيان.

كما رأينا كذلك، أن ريكور، قد عرف السرد بأنه بناء لغوي يتوسط بين الزمن المعيش و الزمن اللغوي، و أن هناك نوعان من السرد تتميز بهما ثقافتنا في نظره، من جهة لدينا مرويات خيالية، حتى لو اتخذت في بناءاتها أحداث واقعية، وحقيقية، تبتعد عن الواقع وتقدم نفسها كأحداث خيالية، لأنها ببساطة لا تخضع لإجراءات منهجية، ومن الجهة الأخرى لدينا الروايات التاريخية التي تقوم على الوثائق و الوقائع المادية وتتطلع أن تكون موضوعية ولكنها لا تستطيع الإستغناء عن السرد، لأنه يبقى مرجع أساسي في كتابة التاريخ، كما يسعى المؤرخ بعد فترة البحث و التنقيب، إلى إقامة صلة بين نشاط " قول الحكاية " و بين الطبيعة الزمنية للتجربة الإنسانية، وذلك دون إغفاله للمشاكل الإبيستمولوجية والمنهجية لمسألة البحث التاريخي الناجمة عن التحليلات و الإجراءا ت الأدبية والسيميولوجية. فالكيان الفردي أو الجماعي يمكن أن يتحدد فقط بواسطة فعل تصوير رواية إما خيالية أو تاريخية، وهذا ما نجنه في صيغة ريكور: القص يربط ما هو فعل ": " ربما كانت فعالية المحاكاة في السرد تتميز تخطيطيا بوصفها ابتكارا لزمان ثالث مكون فوق الشق نفسه الذي سلطت الإلتباسية الضوء على أثره، ترسيمه ظهر هذا التعبير- الزمان الثالث – في تحليلنا بوصفه طريقة يحدد بها الفكر التاريخي سمات تكوين الروابط على نحو لا يختلف عن زمان التقويم [...] إلى أي حد يشكل تقاطع الإستهدافات الأنطولوجية الخاصة للتاريخ و القصص إجابة مناسبة على الإحتجاب المتبادل لمنظورين الظاهراتي و الكوني عن الزمان ؟ [...] الفرع الهش الصادر عن وحدة التاريخ و القصص هو تخصيص هوية محددة لفرد أو جماعة نستطيع أن نطلق عليهم هويتهم السردية." (□□) فالهوية، ماهي في الأخير ما هي إلا الهوية السردية، حيث يشير بول ريكور إلى كلمة هوية هنا هي بمعنى المقولة العملية أي عندما نأتي على ذكر هوية فرد أو جماعة نجيب على أسئلة " من فعل ذلك" « qui est l'action »، أو" من هو الفعل أو المؤلف ؟ " « qui est l'auteur ».

في نظر ريكور، أن الإجابة تكون بتسمية شخص ما، لأن الفعل يعزى لاسم العالم الخاص به. وهو نفسه من تمتد حياته من الميلاد إلى الموت: لا تكون

(31)- بول ريكور/ الزمان و السرد، ج 3 ص 369-370

الإجابة إلا عن طريق السرد- و الجواب " من" و هنا يستعيد ريكور، حنا أرندت « H-Arendt » في الوضع الإنساني " : أثناء الجواب علن سؤال " من " ؟ « qui » : يعني أن نروي قصة حياة وتروي هذه القصة المروية " فعل " هذا : الـ " من " و بالتالي تكون هوية هذا الـ " من " نفسها هوية سردية، إن هذا المفهوم في نظر ريكور، يتيح التفكير في مسألة الهوية الشخصية بطريقة أخرى وجديدة، سيقترح ، بول ريكور، تحديدات أخرى لها وهي التفرقة فيها بين الهوية كعينية[□□] (في اللاتينية Idem) والهوية كذاتية (في اللاتينية Ipse) فالهوية العينية تحيل على المطابقة أي ديمومة في الزمن بالإحتفاظ بمجموعة من الخصائص، وتختفي هذه التفرقة إذا استبدلنا الهوية العينية، بالهوية بمعنى ذاتية الذات Ipse: " وليس الإختلاف بين العينية و الذاتية بأكثر من الإختلاف بين الهوية الجوهرية أو الصورية و الهوية السردية، ويمكن لمطابقة الذات، أو دوام الذات، ان تفلت من معضلة المطابق و الآخر بحيث تعتمد هويتها على بنية زمانية تتكيف مع نموذج الهوية المتحركة الناشئة عن التأليف الشعري لنص سردي[...] خلافا للهوية الموجودة لدى المطابق، يمكن أن تشتمل الهوية السردية ، المكونة لدوام الذات، على التغير و التبدل في إطار تماسك زمان حياتي واحد، وهكذا يدو الفاعل هنا هو قارئ هذه الحياة وكاتبها معا[...] وكما يؤكد التحليل الأدبي للسيرة الذاتية، فإن قصة الحياة تستمر وهي تعيد تصويرها جميع القصص الخيالية و الحقيقية التي تروي ها ذات ما عن نفسها." [□□]

يشرح ريكور، أن الذات في المعرفة الذاتية، هي ليست النرجسية، التي نددت تأويليات الشك و الريبة بثقافتها وسذاجتها، أو حتى جوانبها الإيديولوجية أو الطفولية. بل إن ذات المعرفة الذاتية هي ثمرة الحياة الممتحنة بالعناء، وصقلتها آثار التطهير« Catharsis » في السرود و الحكايات. سواء أكانت خيالية أم تاريخية، لتي تنقلها ثقافتنا، فالذات- الذاتية هي كذلك التي تحيا من أعمال ثقافة تحاول أن تطقها على ذاتها، وبذلك: " يتشكل الفرد و الجماعة معا في هوتهما من خلال الإستغراق في السرود و الحكايات التي تصير بالنسبة لهما تاريخهما الفعلي."[□□]

و في الأخير، نستطيع أن نذهب مع ريكور فينقضه للمخالطة للمخالطة "إن القصص تروى ولا تعاش، و أن الحياة تعاش و لا تروى" إلى القول: " إن الحياة تعاش، أما القصص فتروى" ، للحصول على فهم مفتوح لذاتنا. إلا أننا سنجد أن ريكور، سوف لن يكتفي بمفهوم الهوية السردية الذي نجده في الزمان و السرد، لأنه سيطوره لاحقا في كتابه الذات عينها كآخر، إلا أن وجهته ستكون مع تأويلية الوضع التاريخي وهي أطروحته في **الذاكرة ، التاريخ والنسيان**

([32])- اعتمدنا على الترجمة التي يقترحها جورج زيناني في/ الدات عينها كأخر ، لول ريكور/ م.ع.ت. ط 1 – بيروت 2005 ص 253

([33])- بول ريكور/ الزمان و السرد، ج 3 ص 37

([34])- بول ريكور/ المرجع نفسه- ج 3، ص 372